أحمد داود أوغلو

العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية

ترجمة محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل؛ مراجعة بشير نافع وبرهان كوروغلو (بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون؛ الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠١٠). ٦٤٦ ص.

محمد نور الدين

ـ ١ ـ

على الرغم من أن المتخصّصين في العلوم السياسية يحملون في داخلهم مشروعاً لرجل السياسة، فإن أحمد داود أوغلو لم يعتقد يوماً بأنه سيمارس السياسة بمعناها الواسع.

فهذا الأكاديمي الذي أمضى حياته في عدة جامعات في التسعينيات من القرن العشرين، وأسس مركزاً للدراسات هو «علم وصنعت» في منطقة أقصاراي في اسطنبول، كان القدر يخبّىء له مفاجآت سارة، جعلت منه واحداً من أشهر المنظّرين الاستراتيجيين، ليس في تركيا، بل في العالم أيضاً.

وإذا كان بعض المنظّرين قد اكتسبوا خبرتهم وآراءهم الاستراتيجية من ممارسة مهام سياسية مثل زبيغنيو بريجنسكي وهنري كيسنجر، فإن أحمد داود أوغلو انطلق في الاتجاه المتسلسل أكاديمياً: وضع أسس لنظرية، ومن ثم تطبيقها على أرض الواقع، أولاً، عبر آخرين، وثانياً عبره بالذات.

هذه باختصار «سيرة» أحمد داود أوغلو وكتابه الشهير: **العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية**، الذي صدر في أواخر العام ٢٠١٠، في ترجمة عربية بعد تأخير عشر سنوات كاملة. وهذا يطرح على الهامش أزمة الترجمة المنتظمة في الوطن العربي، ومدى متابعة القارىء والباحث العربي، على حدّ سواء، للإبداع الفكري والسياسي العالمي في لحظته، علماً بأن تأخير صدور الترجمة عشر سنوات يتحمّل داود أوغلو جانباً من مسؤوليتها، حيث كان يريد منذ العام ٢٠٠٤ إدخال تعديلات على بعض فصوله، نظراً إلى تجاوز التطورات بعض ما جاء في الكتاب، وهذا أمر طبيعي. لكن الكتاب عاد وصدر بترجمة أخرى عن مركز الجزيرة للدراسات من دون إدخال أية تعديلات أو تحديثات. واكتفى أحمد داود أوغلو بإضافة ما يمكن اعتباره فصلاً جديداً في نهاية الكتاب، يتناول عرضاً وتقييماً لمجمل السياسة الخارجية التركية منذ أن أصبح هو في نهاية العام ٢٠٠٢ مستشاراً لرئيس الحكومة عبد الله غول، ثم

رجب طيب أردوغان، وصولاً إلى تعيينه وزيراً للخارجية في أيار/مايو من العام ٢٠٠٩ وما يزال.

من الصعب محاولة اختصار الكتاب في أقسامه الثلاثة، وفصوله الكثيرة، وصفحاته التي تزيد على الستمئة، في كلمات أو حتى صفحات. فالكتاب يتناول تفاصيل كثيرة، وهو رحلة شاملة في التاريخ السياسي والتاريخي لتركيا في العصر الحديث مع الاتكاء مراراً على العمق التاريخي، وصولاً، حين الاضطرار، إلى السلاجقة وما قبلهم.

يستعرض الكتاب في **القسم الأول**، الإطار المفاهيمي والتاريخي للقوة التركية وجغرافيتها وتاريخيتها وثقافتها. وفي **القسم الثاني** يعرض المؤلف للواقع الجيو ـ سياسي لتركيا خلال الحرب الباردة، بدءاً من المناطق القريبة البرية والبحرية، وصولاً إلى المناطق القارية، مثل آسيا وأوروبا وأفريقيا. وفي **القسم الثالث**، الذي يحتل أكثر من نصف الكتاب، يستعرض أحمد داود أوغلو علاقات تركيا بكل العوالم المحيطة بها، والمؤثرة فيها، والمتأثرة بها، من الولايات المتحدة، والناتو، والاتحاد الأوروبي، إلى العالم الإسلامي، والشرق الأوسط، والعرب، وإسرائيل، وإيران، امتداداً إلى القوقاز، وآسيا الوسطى. ويختتم الكتاب بفصل إضافي خاص بالطبعة العربية حول تركيا: «ما بعد العمق الاستراتيجي: تركيا دولة مركز»، في عرض للسياسات التطبيقية لنظرية العمق الاستراتيجي، وما طرأ على النظرية من تطوير خلال السنوات الثماني الماضية.

لعل أهم ما في فلسفة الكتاب أن طبعته الأولى، باللغة التركية، ظهرت في نيسان/أبريل ٢٠٠١، أي قبل حصول أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، وتفجير البرجين في نيويورك، وما تلا ذلك من حملة أمريكية واسعة على الإسلام والمسلمين، تجسّدت بغزو أفغانستان، واحتلال العراق، وتدمير دولته، ونهب ثرواته، وتفتيت وحدته الجغرافية والسياسية.

ـ ٢ ـ

لا تخفى أهمية أن يصدر كتاب **العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية**، قبل أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ على أحد، لجهة أنه لم يكن نتاج الانفعالات والحساسيات والتداعيات التي نتجت من ذلك الحدث، بل كان نتاج رؤية هادئة وموضوعية وشاملة إلى موقع تركيا ومكانتها ودورها في محيطاتها الإقليمية والدولية، فضلاً على أن الكتاب الذي تجاوز عدد صفحاته باللغة التركية الخمسمئة صفحة، وباللغة العربية تجاوز الستمئة صفحة، واتساع مروحة الموضوعات التي تناولها، وهي بالفعل كثيرة جداً، يحتاج إعداده إلى جهد سنوات، هي سنوات التسعينيات من القرن العشرين، وصولاً إلى نهاية العام ألفين تقريباً.

إذاً نحن أمام كتاب ـ سِفر كبير ينتمي إلى عيون الفكر الاستراتيجي العالمي.

والمهم أيضاً في هذا الكتاب أن مؤلفه أصبح بعد صدوره مستشاراً لرئيس الحكومة التركية، بل إنه كان مستشاراً للشؤون الخارجية لكل المسؤولين الأتراك في حكومات حزب العدالة والتنمية، منذ وصول الحزب في نهاية العام ٢٠٠٢ الى

السلطة. فقد كان يرافق عبد الله غول، كرئيس للحكومة، وكوزير للخارجية، ورافق رجب طيب أردوغان، كرئيس للحكومة، ورافق علي باباجان، كوزير للخارجية، في كل رحلاتهم. كان مستشاراً للجميع. وما كان يردّده أحمد داود أوغلو في حواراته أو حتى مقالاته، كان يجد صداه على لسان قادة حزب العدالة والتنمية. فقد كان فكرة واحدة بعدة ألسن.

وجدت نظرية أو رؤية أحمد داود أوغلو صداها وحضورها لدى سلطة حزب العدالة والتنمية. وجدت النظرية وعاء سياسياً يحتضنها ويتبنّاها، بل يدفع بصاحبها إلى أن يكون له دور ريادي في صياغة السياسة الخارجية لتركيا في مرحلة حساسة جداً وصعبة من تاريخ تركيا والمنطقة. واكتمل الأمر بتعيين أحمد داود أوغلو وزيراً للخارجية في ربيع العام ٢٠٠٩. جاء أحمد داود أوغلو إلى الخارجية بعدما كان كل شيء قد تبلور في سياسة تركيا الخارجية، وفي علاقاتها مع جيرانها والقوى العالمية الأخرى. مع ذلك، فإن انتقال أحمد داود أوغلو من موقع «وزير الظل» إلى الوزير الأصيل، أضفى حيوية إضافية على السياسة الخارجية، إذ طبع شغف هذا الشخص بالتاريخ والماضي جانباً كبيراً من زياراته إلى الدول، حيث كان يركّز على ما تبقّى من آثار وتقاليد تعود إلى الدولة العثمانية، بل ما قبلها من سلاجقة، وصولاً إلى جذور الأتراك في منطقة سنجان في شمال غرب الصين.

لم يعد ممكناً فصل الشخص عن السياسة، والتطبيق عن النظرية، بل لم يعد ممكناً تخيّل السياسة الخارجية التركية من دون أحمد داود أوغلو. لذا أصبح أحمد داود أوغلو واحداً من أعمدة الدولة والسياسة في تركيا، وواحداً من صانعي السياسات الإقليمية، بل الدولية أحياناً.

في حواراته مع الصحافيين، ومع الأكاديميين، وكنت جزءاً في الكثير منها، وفي لقاءاتي المتعدّدة معه، منذ منتصف التسعينيات من القرن العشرين، كان التاريخ هاجس أحمد داود أوغلو، ينتظر منه الجالسون معه موقفاً من قضية سياسية أو عسكرية متفجرة، لكنه كان يذهب بهم، في معظم أوقات الحوار، إلى الحوار مع الماضي، والتركيز على الروابط الثقافية المشتركة. كان أحمد داود أوغلو، وبالطبع ما يزال، يرى أن البيئة التاريخية مهمة جداً في العلاقات بين الدول، وبين المجتمعات. وهذا القاطن في غازي عينتاب التركية، مثلاً، هو أقرب الى القاطن في حلب السورية منه إلى شريكه في الوطن القاطن في اسطنبول التركية.

يركّز أحمد داود أوغلو في كتابه، وفي نظريته، وفي رؤيته، على أهمية الروابط التاريخية في توثيق العلاقات بين الدول. وفي هذا السياق، يشكّل المرجع (الرفرانس) العثماني أهمية فائقة في نظريته عن العمق الاستراتيجي لتركيا.

يرى أحمد داود أوغلو أن وجود وشائج مشتركة مع كل المناطق التي كان العثمانيون يسيطرون عليها، في ظل الإمبراطورية، يسهّل كثيراً إعادة التواصل، ولو اختلفت الانتماءات الدينية والعرقية والمذهبية.

لذا، كانت الجغرافيا العثمانية هي المجال المفضل لأحمد داود أوغلو لكي يؤدي فيها، بل يكسب المباراة تلو الأخرى في

التواصل مع الجوار الجغرافي، وقد حوّل تركيا من دولة محاطة بالأعداء الى دولة محاطة بالأصدقاء وذات علاقات استراتيجية معهم.

لقد وضع أحمد داود أوغلو الأساس التاريخي والفكري والنفسي لنظريته في كتابه، لكن ترجمته السياسية، التي اختصرها في الفصل الذي أضافه على الكتاب، تكاد تختصر النظرية وتطبيقاتها على أرض الواقع.

انتهت الحرب الباردة، واختفى العدو الرسمي لتركيا والغرب، أي الاتحاد السوفياتي والشيوعية، ومع ذلك استمرت السياسات التركية في الالتحاق بالمنظومة الغربية ـ الإسرائيلية، وفي معاداة محيطها في البلقان، وفي الوطن العربي، والعالم الإسلامي. تغيرّت الوقائع الجيوبوليتيكية بكاملها، فيما استمرت السياسة الخارجية التركية في التسعينيات من القرن العشرين على المنوال التبعي نفسه الذي كان قائماً أثناء الحرب الباردة كأن شيئاً لم يتغيّر.

ـ ٣ ـ

هذا هو الفرق الأساسي بين أحمد داود أوغلو ومن سبقه؛ الحقائق نفسها، لكن الزاوية التي تُقرأ من خلالها اختلفت. لم يستطع السابقون قراءة موقع تركيا والطاقات الكامنة التي تختزنها في كل محيطاتها من أجل أن تكون قوة إقليمية عظمى، وعلى حافة القوة العالمية. لقد كانت لأحمد داود أوغلو تلك العين الثاقبة التي نفذت إلى عمق هذه الطاقات الممتدة عبر التاريخ والثقافة، وأيضاً عبر المصالح. لقد رأى أحمد داود أوغلو، بعيني زرقاء اليمامة، ما يمكن أن تكون عليه تركيا في حال استغلّت ووظّفت ما تختزنه من أوراق مهمة على صعيد الموقع الجغرافي الاستراتيجي والإرث التاريخي. وما كان بين سورية وتركيا من علاقات تشبه مباراة بالملاكمة في جولتها الأولى، حيث يكتفي الملاكم بالتعرّف على قوة الآخر (ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨) أصبح تعاوناً استراتيجياً وحدوداً مفتوحة.

لقد أكسبت الجغرافيا تركيا موقعاً فريداً بين آسيا وأوروبا وبين البحر الأسود والبحر المتوسط، لكن التاريخ والحضارة أكسباها أكثر من مجرد موقع جغرافي. هي في وسط التفاعلات الحضارية بين الغرب والشرق، وبين الإسلام والمسيحية، وبين العالمين السلافي والمتوسطي، وبين العالم التركي في القوقاز وآسيا الوسطى وبقايا التأثيرات التركية ـ الإسلامية في البلقان، وبين الغرب السياسي بمنظماته الأطلسية والاتحاد الأوروبي، وبين منظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الإيكو التي تجمع بين تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان ودول أخرى.

هذه الـ «تركيا» لا يمكن أن تبقى مجرد جسر بين الغرب والشرق، وبين أوروبا وآسيا، وبين الإسلام والمسيحية. هذه الـ «تركيا» لا بد من أن تكون مركزاً لتمارس دورها المحوري.

من هنا، كانت مبادرات تركيا لتكون عنصراً فاعلاً في سياساتها الإقليمية والدولية. فانطلق أحمد داود أوغلو نفسه في مساعي للوساطة بين كل المتنازعين في المحيط الإقليمي لتركيا إلى حلّ مشكلاتهم، ومنع انفجارها. ترى تركيا أنها معنية بكل ما يجري في محيطها، لأنه يؤثر فيها،

وعليها ألا تنتظر ليصل الحريق إلى بابها، بل أن تمنع حتى الحريق من الاشتعال. هذه القاعدة في السياسة الخارجية تبدو مغايرة، وعلى طرفي نقيض للشعار الذي رفعه مصطفى كمال أتاتورك نفسه بعد تأسيس الجمهورية، ويركّز على الاهتمام بالشأن الداخلي، وتوطيد دعائم الجمهورية، وعدم التدخل في المشكلات خارج تركيا، بل عدم التورط فيها.

ربما يكون انكفاء تركيا على نفسها، بعد انهيار الدولة العثمانية وتأسيس الجمهورية في العام ١٩٢٣، بعد معركة قاسية مع الإنكليز والفرنسيين واليونانيين، مبرّراً، لكن أن تبقى تركيا رهينة سياسات أحادية بعد انتهاء الحرب الباردة، وغياب الخطر الشيوعي، لم يكن له ما يبرّره، بل كان يقود تركيا إلى بقائها معزولة ومحاطة بالأعداء.

لذا، عندما رسم أحمد داود أوغلو العمق الاستراتيجي لتركيا في كتابه المطوّل، أعطى أهمية للبعد التاريخي والثقافي (الإسلامي التركي)، ولا سيما تجاه المناطق الإسلامية والتركية. لكن أحمد داود أوغلو لم يحصر نظريته، ولا تركيا، في القمقم التاريخي؛ فمقاربته، كمسؤول رسمي في الدولة، لعلاقات تركيا مع كل القوى والتكتلات الدولية، كانت تخفي، ما سمّاه هو لاحقاً، وبعد سنتين على صدور الكتاب، سياسة «تعدد البعد».

لم يعنِ تعدد البعد تخفيفاً من ثقل العامل التاريخي والثقافي، لكنه كان يدخل عامل المصالح الوطنية التركية، ومستقبل تركيا، في محيطات جيو ـ سياسية واقتصادية متحركة ومتغيّرة.

هنا يجد الاتحاد الأوروبي مكانه، كهدف استراتيجي لتركيا، لجهة السعي إلى الانضمام اليه. والمعادلة عند أحمد داود أوغلو واضحة ومهمة جداً، وهي أن العضوية التركية في الاتحاد الأوروبي يجب ألا تتم عبر التخلي عن هويتها، وعن عمقها الجيو ـ ثقافي (ص ٥٨٤).

ـ ٤ ـ

يتسم كتاب أحمد داود أوغلو بمقاربة مركزية، هي العمق الجغرافي والتاريخي لتركيا، وبمقاربة مركّبة، أساسها المصالح الوطنية، عندما يتعلق الأمر بالحقائق والتكتلات الجديدة في العالم، التي لا تجد في إقامة علاقات جيدة مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، خارج السياسات العدوانية، تناقضاً مع سياسة العمق التاريخي.

ومثل هذه المقاربات المتعددة البعد تحتاج إلى قراءات متعددة لكتاب غني وعميق، لا يعدم مرور بعض الأحكام التي قد لا تجد قبولاً هنا أو هناك، ولا بعض الاستنتاجات التي طوّرتها التجربة العملية في ممارسة السياسة.

من دون قراءة كتاب **العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية** لا يمكن فهم جوهر السياسات التركية ومنطلقاتها في السنوات الأخيرة. وعلى صانعي القرار أن يقرأوه قبل الباحثين، وقبل القرّاء العاديين، ليكتشفوا أن تركيا وإيران هما عمق العرب الاستراتيجي الجديد، وأن «المشروع» (إذا جاز لنا التعبير) التركي الجديد يشكّل ظهيراً وفرصة للمصالح العربية والإسلامية، على العرب

والمسلمين مدّ اليد إليهما، حتى لا تفقد تركيا في التطبيق العملي عمقها الاستراتيجي الذي اكتشفته مع أحمد داود أوغلو، ورعته مع رجب طيب أردوغان وعبد الله غول.

❊ ❊ ❊

ملاحظة أخيرة: إن الجهد الذي بذل من أجل ترجمة الكتاب (للكتاب ترجمة أخرى على الإنترنت منذ العام ٢٠٠٤ لغزال يشيل أوغلو) لا يعفي أبداً من أن يتضمّن فهرساً للأماكن والأعلام الضرورية في كتاب أكاديمي واستراتيجي، علماً بأن الطبعة التركية من الكتاب تتضمن مثل هذا الفهرس المزدوج □

صدر حديثاً

النساء العربيات في العشرينيات حضوراً وهوية

مجموعة من الباحثين

يتضمن هذا الكتاب أعمال مؤتمر علمي مهم عقده «تجمع الباحثات اللبنانيات» وكرّس لبحث تلك الفترة، انطلاقاً من أعمال النساء وأوضاعهنّ بالذات، حيث تبلورت الكتابات النسائية الأدبية والفكرية، وطرحت قضية المرأة بإلحاح.

لقد كانت العشرينيات هي مرحلة تأسيس بالنسبة إلى الوعي الوطني، ووعي المرأة بقضيتها الاجتماعية.

وتبين الدراسات المنشورة في هذا الكتاب أن الحداثة الغربية لم تكن دائماً في صالح النساء.. وأن وضع النساء ازداد سوءاً في ظل الاستعمار الأوروبي، وبعد تشكُّل نظام الدولة الحديثة ووضع دساتيرها تحت تأثير الرعاية الأجنبية.. كما أظهرت هذه الدراسات صورة جديدة للمرأة العربية، تفيد انتماءهن العضوي إلى مجتمعاتهن، وسعيهن الدؤوب إلى التحرر السياسي والاجتماعي وتحديث السلوكيات والأفكار.

٥٧٤ صفحة
الثمن: ٢٣ دولاراً
أو ما يعادلها